اثر الثقافة على الصحة النفسية

الدكتور : ماهر فرحان مرعب

جامعة قالمة ، الجزائر

الملخّص:

يتناول هذا المقال علاقة الثقافة بالصحة النفسية من خلال الشخصية على اعتبار أن الثقافة هى العامل الأكثر تأثيرًا في تكوين الشخصية لكونها تمثل البيئة التى يجب على الشخصية أن تتوافق معها ومن خلالها، بما تحتوي من قواعد سلوكية وأنماط تنشئة، وعلى أثر هذا التوافق بما يضمه من إشباع أو كبت للحاجات النفسية يتوقف وصفنا لمدى سلامة الصحة النفسية للفرد.

Abstract:

This article discusses the relationship between culture and psychic health, through the personality, considering the culture more factors impact in the structuring of personality; it represents the environment must adjustment with it and through it, with all the rules of behavior and patterns of socialization, On the basis of this adjustment, With all the satisfaction or suppression of psychological needs, Depends as to how safe the psychic health of the individual.

مقدمة:

تعتبر الصحة النفسية ضرورة حياتية من اجل تحقيق وضع سوي لعيش وتفاعل الفرد مع نفسه ومع المحيط الذي يتواجد فيه بيئيا كان او اجتماعيا او ثقافيا، وذلك لما تمثله الصحة النفسية من توافق وتكيف الفرد على المستويين الذاتي والاجتماعي، بتحقيق رضا الفرد عن نفسه وثقته بها وكذلك توائمه واندماجه مع بيئته ومحيطه الذي يعيش فيه.

إن توافق الفرد لا يتم إلا من خلال وسطا مهما، وهو ثقافة مجتمعه، لكون عملية التوافق تتم مع هذه الثقافة التي تحدد درجة توافق الفرد ومدى صحته النفسية، ولان الثقافة هي أسلوب حياة يحدد طريقة ومستوى إشباع حاجات الفرد المتعددة، التي تعد كعملية من أهم نقاط توافقه الذاتي والاجتماعي وبالتالي تحدد طبيعة ومستوى صحته النفسية.

معنى الثقافة:

يعتبر الانثروبولوجي الانكليزي ادوارد تايلور أول من قدم تعريفا ناضجا للثقافة فهو يعرفها بأنها ذلك الكل المعقد الذي يتضمن المعارف والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والعادات وأي قدرات أخرى يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع.

كما عرفها رالف لنتون بأنها الشكل العام للسلوك المتعلم ونتائج هذا السلوك الذي يشترك في العناصر المكونة له ويتناقله أعضاء مجتمع بعينه[1].

وينظر إلى الثقافة بأنها الأساليب السلوكية والأفكار والمعتقدات والرموز التي تنتشر عبر قطاعات عريضة من الناس من خلال وسائل الاتصال الجماهيري أو من خلال التقليد[2].

وللثقافة خصائص من أهمها: أنها إنسانية، مكتسبة، وتتميز بالاستمرارية، وأنها قابلة للانتقال، والتغيير، كما إنها ملزمة اي تحدد أسلوب الحياة[3].

اذا الثقافة تعني طريقة الحياة التي يكتسبها الفرد في المجتمع ومن خلالها يتعلم كيف يعيش ويعبر عن سلوكه ويضبط هذا السلوك وفقا لمجموعة المحددات القيمية التي يضعها المجتمع.

- معنى الشخصية:

الشخصية نمط سلوكي مركب، ثابت ودائم إلى حد كبير، يميز الفرد عن غيره من الناس، ويتكون من تنظيم فريد لمجموعة من السمات والأجهزة المتفاعلة معا، والتي تضم القدرات العقلية، والوجدان أو الانفعال، والنزوع أو الإرادة، وتركيب الجسم، والوظائف الفسيولوجية، التي تحدد طريقة الفرد الخاصة في الاستجابة، وأسلوبه الفريد في **التوافق** مع بيئته[4].

يعرف alport الشخصية بأنها ذلك التنظيم الديناميكي الذي يكمن بداخل الفرد والذي ينظم كل الأجهزة النفسية والجسمية التي تملي على الفرد طابعه الخاص في **التوافق** مع البيئة[5].

فالشخصية تعبر عن الفرد من حيث هو كل موحد من الأساليب السلوكية، وهي نظام متكامل من الصفات الجسمية والسمات النفسية التي تتميز بالثبات النسبي، والتي تميز الفرد عن غيره من الأفراد، **كما تحدد أساليب نشاطه وتفاعله مع البيئة الخارجية المادية والاجتماعية التي يعيش فيها**[6].

وهناك من يرى بان الشخصية عبارة عن تكوين كلي معقد يجعل لكل فرد طابعه الخاص الذي يميزه عن غيره بحيث لا يوجد اثنان متشابهان تشابها كاملا[7].

وبهذا تعني الشخصية ذلك المزيج من السمات والقدرات التي تميز الفرد عن غيره في السلوك وفي التكيف مع الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه.

- معنى الصحة النفسية:

تعرف الصحة النفسية بأنها: عملية التكيف أو **التوافق** النفسي الذي يهدف إلى تماسك الشخصية، ووحدتها، وتقبل الفرد لذاته، وتقبل الآخرين له بحيث يترتب على هذا كله شعوره بالسعادة والراحة النفسية[8].

وتعرف أيضا بأنها: «حالة عقلية انفعالية إيجابية، مستقرة نسبيا، تعبر عن تكامل طاقات الفرد ووظائفه المختلفة، وتوازن القوى الداخلية والخارجية الموجهة لسلوكه في **مجتمع**، ووقت ما، ومرحلة نمو معينة، وتمتعه بالعافية النفسية **والفاعلية الاجتماعية**»[9].

لذا هناك من يرى بأن الصحة النفسية: تقاس بمدى قدرة الإنسان على **التوافق** مع الحياة، بما يؤدي بصاحبه إلى قدر معقول من الإشباع الشخصي والكفاءة والسعادة.

لذلك تعني الصحة النفسية بإيجاز: مستوى توافق الفرد مع ذاته (البيئة الداخلية) ومع الاخرين (البيئة الخارجية).

اذا هناك علاقة بين التوافق والصحة النفسية، باعتبار التوافق ممثلا عن الصحة النفسية للفرد، وهنا لابد لنا من التعريج قليلاً على التوافق فنقول:عرف التوافق النفسي بأنه: «قدرة الفرد على أداء وظيفته في الحياة بنجاح، من خلال أهدافه وإمكانياته والفرص المكفولة له، وفي إطار بيئته الاجتماعية والاقتصادية[10].

كما عرف التوافق بأنه : «إشباع الفرد لحاجاته النفسية، وتقبله لذاته، واستمتاعه بحياة خالية من التوترات، والصراعات، والاضطرابات النفسية، واستمتاعه بعلاقات اجتماعية حميمة، ومشاركته في الأنشطة الاجتماعية، وتقبله لعادات وتقاليد وقيم مجتمعه[11].

– التوافق الاجتماعي والنفسي:

تعد الحياة عبارة عن سلسلة من عمليات التوافق يعدل فيها الفرد سلوكه في سبيل الاستجابة للموقف المركب، الذي ينتج عن حاجاته، والإنسان السوي

من لديه القدرة على القيام باستجابات متنوعة تلائم المواقف المختلفة وتنجح في تحقيق دوافعه.

هذا على المستوى الاجتماعي أما بالنسبة للتوافق النفسي نقول: لا يعتبر الفرد غير الواقعي والمحبط شخصا متوافقا، أما الذي يقابل العقبات والصراعات بطريقة بناءة تحقق له إشباع حاجاته فإنه يعتبر شخصا حسن التوافق؛ لأن العقبات والصراعات لا تعوق قدرته على الإنتاج، فالتوافق النفسي يقوم على تحقيق نوع من الرضا العام بالنسبة للشخص، أكثر من استناده إلى إشباع دافع معين على حساب الدوافع الأخرى، والإنسان السوي يتعلم إرجاء الإشباع العاجل في سبيل ما سيحققه من إشباع آجل، مما يعني أنه يتمتع بقدر من النضج الانفعالي.

- أهم معايير قياس التوافق:

- المعيار الذاتي: ممثلا للتوافق مع النفس: في هذا المعيار يعتبر التوافق خبرة وقدرات ذاتية، فإذا وصف الفرد بكونه غير قادر على الموائمة بين طموحاته وقدراته، او كان غير راض عن نفسه وعن الأمور التي لا يقوى على مواجهتها، او كان يعيش حالة صراع بين أدواره الاجتماعية او بين رغباته وضميره، فهنا يعد الفرد غير متوافق.

- المعيار الثقافي - الاجتماعي: هنا ينظر إلى كل سلوك خارج عن المألوف بكونه عدم توافق، والشخصية المتوافقة هي التي اكتسبت المثل، ولديها القدرة على ضبط الذات، والإحساس بالمسئولية الاجتماعية، والقدرة على التفاعل الايجابي مع الآخرين لأن ذلك يعد من معالم الشخصية المتوافقة.

-المعيار العيادي: ينظر إلى التوافق في ضوء هذا المعيار على أساس تشخيص الأعراض المرضية، فخلو الشخصية من أي أعراض مرضية دليلاً على توافقها النفسي.

إذا الصحة النفسية ضرورة لابد أن ينعم بها الفرد وهي أهم ما يجب أن تتصف بها شخصيته، لان ضرر الجانب النفسي او غياب الصحة النفسية يظهر

على شكل مشكلات سلوكية عدة مثل صعوبة التركيز ومشكلات الانتباه من جراء أعراض جسمية او نفسية بالإضافة إلى الشعور بالملل والقلق والاكتئاب وأحلام اليقظة والتهرب من المسؤولية لضعف الثقة بالنفس، وعدم القدرة على مواجهة المشكلات والعجز عن حلها حلاً موضوعياً[12].

لذلك تؤكد الدراسات على أن هناك علاقة بين نجاح الأفراد في معالجة مشكلاتهم وبين ارتفاع صحتهم النفسية المتمثلة في السيطرة على مشاعر القلق والشعور بالرضا والأمن[13].

- علاقة الثقافة بالشخصية المتوافقة وبالصحة النفسية:

تمثل الشخصية الواجهة المعبرة عن الحالة النفسية للفرد، ومدى توافق او عدم توافق هذه الشخصية يمثل الحكم على صحة الفرد النفسية بالسلامة او المرض، والثقافة عبارة عن مجموعة من المعايير التي تمثل جوهر البيئة الاجتماعية التي يجب ان يتوافق معها الفرد، أي هي الباروميتر-ان صح التعبير- الذي يقاس عل أساسه مدى توافق الشخصية من عدمه.

وبما ان الثقافة تضم مجموعة من المحددات السلوكية ممثلة بمجموعة من القيم والمعايير التي تفرض على الفرد أهدافا عليا ووسائل لبلوغ هذه الأهداف. هذه المحددات السلوكية من قيم ومعايير ومعادلات حياتية تتمثل بالحلال والحرام المقبول والمرفوض المسموح والممنوع، تشكل المنظومة القيمية في كل مجتمع والتي تمارس حكما على السلوك، لذلك توصف الثقافة بأنها إلزامية كما توصف بأنها نسبية أي تختلف من مجتمع إلى أخر، وبما إنها هي(الثقافة) من تحدد الأنماط السلوكية فان هذه الأنماط تتباين وفقا لتباين الثقافات بين المجتمعات، وكل ذلك له دوره في مدى إشباع الفرد لاحتياجاته البيولوجية والاجتماعية والنفسية، واثر ذلك الإشباع من حيث الدرجة والأسلوب على سلامة الفرد ومدى توافقه.

اذا الصحة النفسية هي توافق ذاتي واجتماعي، والتوافق هو إشباع الفرد لحاجاته النفسية، وتقبله لذاته ولعادات وتقاليد وقيم مجتمعه، وإشباع هذه

الحاجات يتم من خلال مجموعة من النظم الاجتماعية التي تمثل استجابات ثقافية للحاجات الإنسانية.

أي ان الفرد في هذه المعادلة يعامل ككائن اجتماعي ثقافي وليس ككائن حيواني غريزي لأن حتى الحاجات الغريزية التي شغلت مساحة عريضة في الفكر الفرويدي الكلاسيكي، لا يتم إشباعها عفويا او حيوانيا وإنما من خلال نظم ثقافية تحدد كيفية الإشباع.

وعلى أساس مدى الإشباع وأساليب تحقيقه، وما يتعرض له الفرد في إشباعه لتلك الاحتياجات من إحباط او كبت او خبرات سلبية تتوقف طبيعة الصحة النفسية للفرد هذا من جانب.

ومن جانب أخر نقول: ان للفرد ولادة بيولوجية عندما يولد ككائن حي وأخرى ولادة اجتماعية ثقافية عندما يتحول من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي ثقافي، عندما يكتسب ثقافة مجتمعه او طريقة حياتهم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعي، التي تعد أداة الثقافة للتأثير على الشخصية.

– التنشئة الاجتماعية أداة الثقافة للتأثير على الشخصية:

يعرف العالم Guy Rochet التنشئة الاجتماعية بأنها السيرورة التي يكتسب الشخص الإنساني عن طريقها ويستبطن طوال حياته العناصر الاجتماعية – الثقافية السائدة في محيطه ويدمجها في بنية شخصيته، وذلك بتأثير من التجارب والعوامل الاجتماعية ذات الدلالة والمعنى، التي يتكيف بواسطتها الفرد مع البيئة الاجتماعية حيث ينبغي أن يعيش.

من خلال هذا التعريف يمكن ان نبين ثلاثة عمليات أساسية تؤدي إلى تكوين شخصية متوافقة ومندمجة اجتماعيا:

1ـ العملية الأولى هي اكتساب الثقافة، حيث يكتسب الفرد المعارف والنماذج والقيم والرموز الاجتماعية التي تخص المجتمع والبيئة التي يعيش فيها.

2ـ العملية الثانية هي تكامل الثقافة في الشخصية، حيث تتكامل عناصر المجتمع والثقافة في مركب واحد ممثلً بشخصية الفرد، أين تصبح آليات الضبط الاجتماعي جزءا من البنية الداخلية للشخصية.

3ـ العملية الثالثة هي نتيجة للعمليتين السابقتين، حيث تؤدي إلى تكيف او توافق الفرد مع بيئته الاجتماعية- الثقافية، حيث يشارك الآخرين في المجتمع، عواطفهم، ويقاسمهم أمالهم وأذواقهم وحاجاتهم ونشاطاتهم، أي يتماثل إلى حد كبير مع النحن الاجتماعية التي يستمد منها الشعور بالهوية.

فالتنشئة الاجتماعية تُكون شخصية الفرد المتماثلة مع القيم والمفاهيم والعادات الاجتماعية السائدة، وهي بذلك تضمن استمرار ثقافة المجتمع واتساقها والمحافظة على وحدتها وعلى الهوية الثقافية[14].

ان بناء الشخصية يتطلب وجود عدة مكونات منها المكون البيولوجي، والسيكولوجي إضافة إلى المكون الاجتماعي-الثقافي، حيث تستوعب الشخصية مضامين هذه الأبعاد من دين وقيم وأخلاق وإشباع للحاجات من خلال عملية التنشئة الاجتماعية أين تلعب الثقافة دورا في توجيه السلوك[15].

والتنشئة الاجتماعية هي عملية تعلم واكتساب الفرد خلال مراحل نموه سلوكا ومعايير اجتماعية تتناسب مع الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه وتمكنه من مسايرة جماعته وتساعده على تحقيق توافقه الاجتماعي. او هي عملية استدماج الثقافة في الشخصية[16].

ان الثقافة تنتقل من جيل إلى أخر ومن الآباء إلى الأبناء عن طريق النظم الاجتماعية في المجتمع كالأسرة و المدرسة ووسائل الإعلام ودور العبادة وغيرها من المؤسسات التنشيئية، فالثقافة تمد جذورها في أعماق طرق التربية المجتمعية التي تتبع في إعداد أفرادها، ولهذا نجد أن المحاولات التي تتم لتغيير العادات والتقاليد في الثقافة تتعارض بقوة مع عادات متأصلة ودوافع قوية تم اكتسابها منذ الصغر.

ولكي لا نذهب بعيدا نقول، إذا كان للتنشئة الاجتماعية دور هام في تكوين الشخصية، فهناك عوامل وراثية وبيئية تؤثر في نمو الشخصية أيضا، وهذه العوامل كلها، لها تأثير مباشر أو غير مباشر على الفرد.

تشتمل البيئة او المحيط الذي يعيش فيه الفرد على العوامل المادية والاجتماعية والثقافية والحضارية، وهذه كلها لها دور في تحديد أنماط السلوك، حيث تعمل مجتمعة على تشكيل حياة الإنسان وتحويله إلى شخصية اجتماعية متميزة، يكتسب بفضلها أنماطا ونماذج سلوكية وسمات معينة نتيجة لتفاعله الاجتماعي مع الآخرين[17].

وكمثال معبر على ذلك، نجد الطفل يقوم بدوره الخاص كما نجده أيضا يتعلم أدوار الأب والأم والأقارب، كنماذج يقوم بمحاكاتها. ان عملية التقليد والمحاكاة هذه تلعب دورا كبيرا في تطبيع الطفل اجتماعيا وتمثيله للثقافة من أجل متطلبات حياة الكبار من الراشدين[18] .

يرى تالكوت بارسونز بان وظيفة التنشئة الاجتماعية يمكن تحديدها بذلك التطور الذي يحصل في التزامات الأفراد وقابليتهم وهي متطلبات ضرورية تتعلق بأداء الأفراد لأدوارهم المستقبلية، هذه الالتزامات التي يمكن تجزئتها إلى التزامات تتعلق بتطبيق القيم الاجتماعية والتزامات أخرى تتعلق بأداء الأدوار داخل البناء الاجتماعي[19].

وقد أكدت الدراسات على تأثير المعاملة الوالدية على الصحة النفسية، فهناك علاقة دالة بين المعاملة الوالدية الصارمة وبين ضعف الصحة النفسية للشباب والتي تتمثل بالإحباط والقلق والعدوان[20].

كما أن للتراث الحضاري تأثيرا على شخصية الفرد، كما للثقافة المعاصرة، وهذا ما يجعل الشخصية تختلف من مجتمع لأخر ومن ثقافة لأخرى، فكل هذه الظروف البيئية المادية والاجتماعية التي تحيط بالفرد هي التي تبني شخصية الفرد[21].

تعد عملية التنشئة بما تحمله من أهداف وأنماط سلوكية مقرة وأساليب تنشيئية وكذلك طبيعة البيئة او الوسط الذي تتم فيه هذه العملية، من أهم العوامل المؤثرة على الصحة النفسية للفرد، لكونها تمثل أداة الثقافة لإعداد وتنميط أفرادها أي خلق أفراد متوافقين اجتماعيا وثقافيا، وعلى أساس مدى سلامة هذه العملية بكل تفاصيلها تتوقف سلامة الفرد النفسية انطلاقا من حقيقة أن ما ينجم من أمراض نفسية وسلوكات مرفوضة او انحرافات-كمؤشرات على عدم توافق الفرد مع نفسه ومع المحيط- تتوقف على عملية التنشئة الاجتماعية.

وذلك لان الثقافة تشتمل على أنماط التنشئة الاجتماعية التي تشكل الشخصية، والسلوك الذي ينتج عن تفاعل الشخصية مع الموقف الاجتماعي، وهذا ما يبين اثر البيئة الثقافية على الفروق الفردية بين الأفراد في الثقافات المختلفة، حيث ينتمي الأفراد إلى جماعات لديها ثقافات تؤثر بشكل كبير على سلوك وأفكار أعضائها في الحاضر وفي المستقبل[22].

هذه الرؤية ليست غيبية او افتراضية وإنما هي رؤية تحليلية لنتائج مجموعة من الآراء والدراسات العلمية التي تبين اثر الجانب الثقافي على الجانب النفسي.

لنبدأ مع علم النفس: فهذه مجموعة من المؤشرات على علاقة الثقافة او المحيط الاجتماعية بالصحة النفسية:

فقد أشار (هاري استاك سوليفان) في نظريته التفاعلية، إلى كيفية نمو الشخصية منذ الطفولة وكيف تكتسب التوتر والقلق، فيقول أن كل ذلك يتم من خلال التفاعل مع الآخرين، كما وان شخصية الفرد هي نتاج عملية التنشئة الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي بوجه عام. ويرى ان للسلوك الإنساني هدفين هما:

أ. الإشباع الجسمي ويتمثل بالطعام والنوم والزواج.

ب. الشعور بالأمن ويتحقق عندما يستطيع الفرد أن يصل إلى توقعاته الاجتماعية التي تمثل مطالب تحقيق الذات لديه في إطار الجماعة.

والذات لديه عبارة عن أساليب سلوكية يكتسبها الفرد، وعنها ينتج التوافق فوجود الذات المتوافقة تعد بمثابة حماية الفرد من التعرض للعقاب وما يصاحبه من قلق بينما وجود ذات غير متوافقة تعد مصدرا لا ينضب للقلق والمعاناة[23].

كما قام باركلي وزملائه(Barkley 1993) بدراسة استهدفت فحص العلاقة بين أسلوب المعاملة الوالدية وإصابة الطفل باضطراب الانتباه، وقد أوضحت نتائج الدراسة أن أساليب المعاملة الوالدية الخاطئة التي يشعر الطفل منها بالإهمال والرفض من قبل والديه تؤدي إلى إصابته باضطراب الانتباه[24].

وأشار علماء النفس ايضا إلى العلاقة بين أسلوب معاملة البيت والنمط المقابل في شخصية الطفل وسلوكه، فالنبذ كأسلوب من أساليب المعاملة الوالدية من شأنه أن يخلق شخصية عدوانية سيئة التوافق، أما الرعاية الزائدة على الحد فمن شأنها أن تخلق شخصية انطوائية، ليست لديها القدرة على تحمل المسؤولية، تعاني من صعوبات التوافق، والآباء المسيطرون قد يؤدي سلوكهم إلى طبع شخصيات أبنائهم بطابع الخنوع فيكون من النوع ألاتكالي، الخجول، أما الآباء المتقبلون لأبنائهم فقد يطبعون شخصيات أبنائهم بطابع المتقبل للناس اجتماعيا، المتوافق والواثق في المستقبل[25].

اما هورني (Horney) فقد بينت أهمية الجانب الاجتماعي للشخصية وعلاقة الفرد بذاته، فالعلاقة الحقيقية بين الفرد وذاته هي أساس الصحة النفسية فالشخص الذي يدرك ذاته من وجهة نظره ويحس بمشاعره وإرادته ويقر بمسؤوليته نحو تصرفاته هو صاحب شخصية سوية، واعتبرت سوء التوافق يرجع إلى عملية التنشئة الاجتماعية والثقافية[26].

حتى بالتعبير الفرويدي عن الشخصية التي تتكون من ثلاث منظمات هي ألهو الغريزية والانا الواقعية والانا الأعلى المثالية، فكل منها تتأثر بالثقافة سواء بضبط الغريزية أو ببناء الضمير أوالانا الأعلى أو بتكوين الأنا الواقعية نتيجة للخبرات والمحددات الاجتماعية. ويرجع فرويد سوء التوافق إلى الطفولة حيث

تنمو الأنا نموا غير سليما. نختم المؤشرات النفسية عن علاقة الثقافة بالصحة النفسية ببعض أقوال (ELIZABETH B. HURLOCK) التي قدمتها في كتابها (DEVELOPMENTAL PSYCHOLOGY، 2001) عندما قالت:

إذا عاش الطفل في بيئة تنتقده تعلم أن يلعن الآخرين.

وإذا عاش في بيئة تكرهه تعلم أن يحارب الآخرين.

وإذا عاش في بيئة تشجعه تعلم أن يثق بنفسه.

أما من الناحية الاجتماعية والانثروبولوجية فخير ما يذكر في هذا المجال دراسات علماء الانثروبولوجيا النفسية والثقافية والتي سنبينها بشيء من التفصيل في المحور التالي.

ـ دراسات عن دور الثقافة في الشخصية وفي الصحة النفسية:

بدأ الاهتمام بدراسة الثقافة والشخصية بعد أن نشرEdward Sapir مقالا بعنوان ظهور مفهوم الشخصية في دراسة الثقافات، في مجلة علم النفس الاجتماعي 1934، كما عالج Seligman في انجلترا موضوع الثقافة والشخصية في مقال نشره بمناسبة تعيينه رئيسا للمعهد الملكي الأنثروبولوجي ويتعلق هذا المقال بالعلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس.

لقد كان العلماء قبل ذلك ينظرون إلى الثقافة والشخصية على أنهما موضوعان متمايزين ويُدرس كل منهما كموضوع مستقل عن الأخر. كما يرجع الاهتمام الواضح في دراسة الثقافة والشخصية إلى كل من klakhohn وMower فقد درسا مكونات الشخصية من الناحية البيولوجية، والبيئة الفيزيقية والاجتماعية والثقافية، وكذلك الخصائص المزاجية، والجماعات السلالية والدور الاجتماعي. لذلك يفسران الفروق بين شخصيات الكائنات الإنسانية بسبب التباين في الصفات البيولوجية، والبيئة التي يعيشون فيها[27].

أـ دراسة هونيجمان على قبائل كاسكا:

توصل هونيجمان من خلال دراسته التي أجريت على قبائل كاسكا للهنود الحمر في الإقليم الشمالي لكولومبيا، إلى العوامل الثقافية التي تؤثر في تكوين شخصية الفرد، وفي ضوئها حدد الصفات الشخصية التي يتميز بها أفراد المجتمع المدروس، ومن أبرز هذه الصفات أنهم يتميزون باتجاهات استقلالية في حياتهم، وذلك لأن الفرد في قبيلة كاسكا لا يطيع ولا يخضع لأي قيادة أو سلطة، سوى سلطة الأب على ابنه.

وفي نفس الوقت يشعر الفرد من تلقاء نفسه رغم تحرره من السلطة، بإحساس بالمسؤولية عن كل أعماله ونجاحه أو فشله. وقد لاحظ هونيجيمان أنه رغم عدم وجود رقابة من الشرطة أو نظام رئاسي، إلا أن أعضاء قبيلة كاسكا يعتبرون الأعمال العدوانية والخصومة الشخصية سلوكا مكروها، والالتزام بشعور الكراهية من أجل العداوة أيضا غير مقبول. أين يحاول الفرد دائما تجنب إثارة الغضب، ويحرص أن يعالج أموره الاجتماعية بالسياسة والتفاهم، كما يتصف سلوكهم بالتسامح[28].

بـ ـ دراسة مارجريت ميد على مجتمع مانوس:

أجرت **ميد** دراستها على مجتمع مانوس وهو مجتمع بدائي يعيش في عزلة ولم تصل إليه وسائل المدنية الحديثة، في الجزر الواقعة في شمال غينيا الجديدة، وأقامت طوال فترة بحثها بين أهل الجزيرة حيث سجلت مشاهداتها عن الأطفال في مراحل نموهم، أين يسكن أفراد تلك الجماعة أكواخا ترتكز على دعائم أقيمت في أعماق البحيرة الواسعة. ويعيشون بنفس الطريقة التي عاش بها أجدادهم منذ مئات السنين، كما أنهم لم يفد إليهم تجار أجانب[29].

حاولت **ميد** في دراستها أن تربط بين سلوك الأطفال وسلوك الكبار، وكذلك بين قيم هؤلاء الأطفال وبين الطرق التي يتبعها الكبار في تربية الأطفال. فوجدت أن الصيغة الثقافية العامة في المجتمع والتي تتحدد بالدور والمركز

الاجتماعي تؤثر في شخصية الطفل، وما يميز مجتمع **مانوس** أنه يعطي الحرية المطلقة للطفل، وأن طرق التربية التي تمارس في تنشئة الأطفال تساهم في تكوين شخصيات متميزة، وقد وجدت **ميد** علاقة بين شخصية الآباء وشخصية الأطفال وذلك عندما درست شخصية مجموعة من الأطفال وشخصية أبائهم. ولاحظت أن بعض الرجال ذو المراكز الاجتماعية يتبنون أطفالا صغارا، ويقومون بتربيتهم كأبنائهم تماما.

واتضح لها أن الأطفال سواء كانوا أبناء حقيقيين أو بالتبني فان شخصيتهم تتشابه في جوانب كثيرة مع شخصيات أبائهم، وتشير **ميد** أنه إذا كان الأمر يقتصر على التشابه بين الأب والابن الحقيقي لقلنا أن هذا يرجع إلى تأثير الوراثة، ولكن التشابه بين شخصيات الآباء وشخصيات الأبناء بالتبني يدفعنا إلى استبعاد عامل الوراثة، أين لاحظت أن الأبناء الحقيقيين أو بالتبني للرجال ذو المراكز الاجتماعية والتي تتميز شخصياتهم بالنمط المسيطر، تتميز شخصيات أطفالهم هي الأخرى بالنمط المسيطر، ويرجع ذلك الى أن هؤلاء الأطفال قد نشأوا ووجدوا أمامهم نموذجا من نمط الشخصية تأثروا به على الرغم من انه يختلف عن نمط شخصية الآباء الحقيقيين[30].

وتقدم **ميد** مثالا على ذلك فتذكر أنها تابعت تباين شخصية طفلين لرجل من سكان الجزيرة، يتصف سلوكه بالانحراف وسوء علاقته مع الاخرين، وله بنت وولد، وقد نشأت البنت عند أبيها، أما الابن فقد تبناه زعيم القرية. وقد لاحظت **ميد** أن الفتاة نشأت مثل أبيها منحرفة وسيئة العلاقات، بينما نشأ الابن قوي الشخصية مقلدا أبيه بالتبني في كل تصرفاته وسلوكه. وعليه تؤكد **ميد** بأن نمط شخصية الطفل تكون حسب الثقافة التي تسود المجتمع الذي يعيش فيه والتي تنتقل إليه عن طريق أساليب التنشئة التي يستخدمها الآباء في تربية أبنائهم.

ج ـ دراسة رالف لينتون على سكان جزر الماركيز:

يعطي **رالف لينتون** مثالا آخر على تأثير الثقافة في تكوين الشخصية وسلامته النفسية عند سكان جزر الماركيز الذين يتصفون بالقلق والاضطراب العصبي، حيث قام بتحليل ثقافتهم لكي يتوصل إلى تفسير لمظاهر القلق والاضطراب العصبي الذي تتصف به شخصيات هؤلاء السكان.

يرى لينتون أن التفسير الذي طرحه العالم النفسي **فرويد** بأن القلق والاضطراب العصبي يرجع إلى الدافع الجنسي، لا يتفق مع مكونات ثقافة مجتمع الماركيز. فالسكان لا يهتمون بالمسائل الجنسية ولا يوجد في لغتهم كلمة تعطي معنى العذرية. لكنه عندما درس النظام الاقتصادي وجد أن السكان يعانون من ندرة الطعام، وفي ظروف القحط الموسمي يسمح بممارسة أكل لحوم البشر. ولذلك يشعر كل فرد بالخوف وعدم الطمأنينة مما يعكس على شخصيته كثير من مظاهر القلق والاضطراب العصبي[31].

د ـ دراسة إبرام كاردينر على مجتمع ألور:

بين كاردينر عن دراسته للنظام العائلي في مجتمع ألور في إحدى جزر الهند الشرقية، أن النمط الثقافي الذي يسود النظام العائلي هو سيادة المرأة وضعف شخصية الرجل واعتماده عليها، لأنها تشكل العامل الاقتصادي في القبيلة. وعند تحليله لهذا النمط الثقافي أرجعه إلى ما سماه النظم الأولية في تربية الطفل عند قبيلة ألور، حيث يعامل الطفل الذكر معاملة قاسية من قبل والديه، ولا يستجاب لمطالبه ورغباته بسهولة بل يحصل عليها بعد أن يعاني من مواقف قاسية، لدرجة حتى إذا مرض فإنه يعالج بوسائل خشنة، ولا يحظى بمشاعر العطف والحنان. وعليه يرى كاردينر بان نظم التربية الأولية تلك تقف عائقا أما تكوين الذات عند الطفل الذكر، لذلك تتصف ذاته الاجتماعية وشخصيته عموما بالضعف، وبذلك يكون مركزه في الأسرة ثانوي وتحتل المرأة المكانة الأساسية.

وقد لاحظ كاردينر أن نمط تنشئة الطفل في ثقافة ألور والمؤثرات التي يتعرض لها تتفق تماما مع الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. فنظام توزيع العمل بين الرجل والمرأة يعطي المرأة العبء الأكبر في ممارسة العمل الزراعي ولا تتلقى من الرجل إلا مساعدات عرضية[32].

ملخص نتائج ميدانية:

- توصل (هاري استاك سوليفان) إلى ان شخصية الفرد هي نتاج عملية التنشئة الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي بوجه عام.

- بينت دراسة باركلي وزملائه (1993) حول فحص العلاقة بين أسلوب المعاملة الوالدية (الوسط الاجتماعي/ الثقافي) وإصابة الطفل باضطراب الانتباه، بينت أن أساليب المعاملة الوالدية الخاطئة التي يشعر الطفل منها بالإهمال والرفض من قبل والديه تؤدي إلى إصابته باضطراب الانتباه.

- بينت هورني (Horney) في دراساتها أهمية عملية التنشئة الاجتماعية والثقافية وتأثيرها على التوافق النفسي والاجتماعي، حيث أشارت إلى أهمية الجانب الاجتماعي للشخصية وعلاقة الفرد بذاته، فالعلاقة الحقيقية بين الفرد وذاته هي أساس الصحة النفسية.

- يرى هونيجمان من خلال دراسته التي أجريت على قبائل كاسكا للهنود الحمر في الإقليم الشمالي لكولومبيا، ان العوامل الثقافية لها تأثير بالغ الأهمية في تكوين شخصية الفرد. لذلك أكد في كتابه عن المنهجية في دراسة الثقافة والشخصية الصادر عام 1954 على ضرورة مناقشة النمو النفسي للفرد وما يتعرض إليه من احباطات وارضاءات في ضوء بيئته الثقافية التي ينتمي إليها.

- بينت الانثروبولوجية مارغريت **ميد** في دراستها على مجتمع مانوس وهو مجتمع بدائي يعيش في شمال غينيا الجديدة، أن الصيغة الثقافية العامة في المجتمع والتي تتحدد بالدور والمركز الاجتماعي تؤثر في شخصية الفرد منذ الطفولة. حيث أشارت إلى ان غالبية أعضاء الجماعة يحملون شخصيات تطابق النموذج الثقافي

السائد في مجتمعاتهم سواء كانت ثقافة شمولية او ثقافة فرعية، وذلك من خلال استبطان الثقافة في شخصية الطفل أثناء عملية نموه في سياق الحياة التي تحكمها الثقافة ذاتها.

- بينت دراسة الانثروبولوجي رالف لينتون لسكان جزر الماركيز تأثير الثقافة في الصحة النفسية من خلال إقرارها لأنظمة اجتماعية تتنافى مع الطبيعة البشرية ممثلة بالسماح بأكل لحوم البشر وقت الأزمات الاقتصادية والتي كانت سببا لإصابة أفراد المجتمع بحالة من القلق والاضطراب السلوكي.

- بين إبرام كاردينر عن دراسته للنظام العائلي في مجتمع ألور في إحدى جزر الهند الشرقية، ان شخصية ونمطية كل من الرجل والمرأة تتأثر بالواقع الثقافي ونظرته إلى مكانة ودور كل منهما في المجتمع. كما يذكر نتائج دراساته الميدانية في كتابه (الفرد والمجتمع Individual and His Society) التي تؤكد على دور العوامل الثقافية في تحديد الظواهر النفسية، وذلك من خلال تأثير الظروف الخاصة بكل ثقافة لتنميط صنف عام من الأفراد يتسمون بسمات نفسية ملائمة لتلك الثقافة.

- أشار رائد الانثروبولوجيا الثقافية الكبير فرانز بواس -كنتيجة نهائية لدراساته الميدانية- إلى ضرورة تحديد أثار الثقافة في أنماط السلوك وفقا لاختلاف بيئاتها الطبيعية ومواقعها الجغرافية.

- بينت دراسات رائد الانثروبولوجيا مالينوفيسكي لمجتمع التروبرياند في ميلانيزيا، الآثار النفسية وصعوبات التكيف التي تواجه الاباء في المجتمع المذكور بسبب التناقضات القائمة بين التقاليد والثقافة المثالية من جهة وبين الممارسات السلوكية الواقعية في الحياة اليومية من جهة ثانية.

- بينت دراسة اريك اريكسون عن مجتمع يوروك حول تكوين ونمو الشخصية في إطار السياق الثقافي، ان شخصيات أفراد المجتمع تتأثر كثيرا بالواقع الثقافي وبعملية التنشئة الاجتماعية، وعلى أساس ما يعتمد من قيم في التنشئة تتوقف نوعية او نمط الشخصية.

- بينت دراسة العالم جفري غورر حول العلاقة بين تطبيع الطفل الياباني وما يسود الشخصية من تناقض بين الطابع الودي الذي يبديه الفرد في الحياة اليومية من خلال تفاعله الاجتماعي وبين العدوانية التي تغلب على سلوكه في الحرب، بينت ان هذا العدوان يرجع إلى صرامة الأساليب المتبعة في تطبيع الأطفال أثناء نموهم مما يظهر ذلك كنوع من الإلزام والانضباط والتعبير الانفجاري عن تلك الضغوط التي تلقاها سابقا.

- بينت دراسة الأستاذ R.B.Lee حول تصريف طاقة العدوان عند البوشمن في إفريقيا، ان ثقافة هذا الشعب تمنع الأفراد من توجيه العدوان ضد بعضهم الأخر، وبالوقت ذاته لا يتم كبت هذا العدوان وإنما يتم تصريفه بطريقة سلمية وذلك من خلال إطلاق النكات للتنفيس عن العواطف، وبذلك تكون النكات آلية ثقافية للحفاظ على الصحة النفسية من جهة وللحفاظ على وحدة الجماعة والابتعاد عن التصادم من جهة ثانية.

خاتمة:

يمكن القول من خلال ما تقدمنا به أن للثقافة أثر كبير في تشكيل شخصية الفرد. فتكوين الشخصية والنماذج السلوكية تتأثر بدرجة كبيرة بنوع ونمط الحياة في المجتمع الذي يعيش فيه الفرد. إذ أن المحددات البيولوجية لا تحدد وحدها نمط الشخصية، كما أن الصفات السيكولوجية لا تشكل وحدها الشخصية، وإنما تتكون الشخصية بتفاعل كل من الموروثات البيولوجية والقدرات السيكولوجية والثقافة التي يعيش فيها الفرد. كما توصل العلماء في دراستهم للشخصية في مجتمعات تتباين من حيث طبيعة ثقافتها، أن معايير الشخصية تختلف من مجتمع إلى أخر وذلك لأن الثقافة هي العامل الفاعل في تكوين أنماط الشخصية المختلفة.

وان الصحة النفسية للفرد او طبيعة وصف الشخصية بكونها سوية او غير سوية سليمة او تعاني من اضطرابات او أمراض نفسية، يعتمد بشكل كبير على الثقافة وعلى المحيط الاجتماعي الذي يمثل البيئة التي يتفاعل معها الفرد وعلى أساسها تتحدد الكثير من سمات ومقومات ونوع الشخصية ومدى سلامتها.

انطلاقا من أن الصحة النفسية هي توافق الفرد ذاتيا واجتماعيا والتوافق هو إشباع حاجات الفرد والثقافة هي بيئة واليات ذلك الإشباع.

كما يمكن القول أن العلاقة بين الثقافة والشخصية علاقة وثيقة، وهي تتم من خلال تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض ومع البيئة التي يعيشون فيها وهنا يتبين مدى توافق الفرد مع محيطه في ضوء طبيعة الثقافة السائدة. كما أن شخصيات الأفراد لا تنمو، إلا في محيط ثقافي عن طريق اكتسابهم للنظم والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع.

❖ هوامش البحث

(1) كامل محمد محمد عويضة، **علم النفس الاجتماعي**، دار الكتب العلمية، لبنان، 1996، ص151.

(2) أحمد زايد وآخرون، **التراث والتغير الاجتماعي**، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، مصر،2002، ص49.

(3) إبراهيم ناصر، **علم الاجتماع التربوي**، دار الجيل، لبنان، بدون سنة، ص132.

(4) أحمد محمد عبد الخالق، **قياس الشخصية**، جامعة الكويت، الكويت، 1996، ص64.

(5) نبيل سفيان، **المختصر في الشخصية والإرشاد النفسي**، إيتراك للنشر والتوزيع، مصر، 2004، ص19.

(6) سيد صبحي، **الإنسان وصحته النفسية**، دار المصرية اللبنانية، مصر، 2003، ص60.

(7) إبراهيم عصمت مطاوع، **علم النفس وأهميته في حياتنا**، دار المعارف، مصر، 1981، ص120.

(8) مصطفى فهمي، الصحة النفسية، **دراسات في سيكولوجية التكيف**، ط2، مكتبة الخانجي، مصر، 1987، ص 18.

(9) عبد المطلب أمين، **في الصحة النفسية**، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 2003، 28.

(10) سيد عبد الحميد مرسي وفاروق عبد السلام، **مقياس الصحة النفسية للراشدين**، سلسلة الدراسات والبحوث، جامعة ام القرى، 1984، ص35.

(11) نبيل سفيان، مرجع سابق، ص153.

(12) محمد علي، **علاقة الوالدين بالطفل وأثرها على جنوح الأحداث**، دار المتنبي، بغداد، 1970، ص 240.

(13) مصطفى فهمي، مرجع سابق،ص **245** .

(14) سمير إبراهيم حسن، **الثقافة والمجتمع**، دار الفكر، سورية، 2007، ص208.

(15) على ليلة، الثقافة العربية والشباب، الدار المصرية اللبنانية، 2003، ص13.

(16) كامل محمد محمد عويضة،مرجع سابق، ص160.

(17) المرجع السابق، ص168.

(18) حلمي المليجي، **علم نفس الشخصية**، دار النهضة العربية، بيروت، 2001، ص178.

(19) T. Parsons**, Social Structure and Personality**, The free collier Macmillan, LTD, London, 1964, p.130.

(20) Balswicks, C. & Macrids, G. **Parental stiruqulus for adolesecent**. MaC millan Publishing Company ,1977 . p 404-4012.

(21) نبيل سفيان، مرجع سابق، ص26.

(22) Harry C. **Triandis and Eunkook M. Cultural Influences on Personality**, Annu. Rev. Psychol, University of California, 2002. P.138,146.

(23) نبيل سفيان، مرجع سابق، ص165.

(24) السيد علي سيد احمد، فائقة محمد بدر، **اضطراب الانتباه لدى الأطفال**: أسبابه وتشخيصه وعلاجه، ط1، النهضة المصرية، القاهرة، 1999، ص43.

(25) سيد محمد غنيم، **الشخصية**، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص36-37.

(26) نبيل سفيان، مرجع سابق، ص166.

(27) مصطفى عمر حمادة، **علم الإنسان مدخل للدراسة المجتمع والثقافة**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2007، ص232.

(28) توما جورج خوري، **الشخصية مفهومها**، سلوكها، وعلاقتها بالتعلم، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1996، ص181.

(29) مصطفى عمر حمادة، مرجع سبق ذكره، ص 238.

(30) see : Mead, Margret & Bateson, Balinese Charactor, Academy of Sciences, New York.

(31) مصطفى عمر حمادة، مرجع سبق ذكره، ص 238.

(32) المرجع السابق، ص242.